بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠٠٥)

تتمة مقدمات الكتاب[1].

[العامة والتاريـــخ][2]

كان العرب في جاهليتهم-على أميتهم-يهتمون بالتاريخ، يتناقلون أخبار أوائلهم وحروبهم وأنسابهم كابرا عن كابر، ويلقنون الولدان ما تجود به قرائح شعرائهم في أيامهم ووقائعهم.

[1] الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبد ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فكما وقع الاتفاق أن نجعل درس اليوم في قراءة لهذا الكتاب وهو كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لمؤلفه الشيخ مبارك بن محمد الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان المفترض أن يقرأ الكتاب في دروس بعد صلاة العشاء، ولكن منهم من أراد أن يحضر ولا يناسبه الوقت، فاقتُرح هذا المجلس ما بين المغرب إلى العشاء بيوم الجمعة، وحظي بالموافقة من الكثير، فيتقرر هذا المجلس إن شاء الله تعالى.

وكما ذكرت سيكون المجلس قراءة في الكتاب، وإذا احتاج الأمر إلى تعليق أشرنا إليه، والمغزى أولا وقبل كل شيء الاتعاظ والاعتبار، وأخذ الدروس من تاريخ هذا البلد، وقد ذكرنا لكم في مبادئ هذا العلم، الفوائد والفضائل التي تستفاد، ومن ذلك أخذ الدروس والعبر، فمعرفة ما لهذه الأمة، وهذا البلد من تاريخ قديم عريق وأيضا وصل اللاحق بالسابق، وأخذ الدروس مما مضى لاستثمارها فيما يأتي.

[2] العامة المقصود بهم عامة الناس.

وقد حفظ لنا الشعراء أخبار تلك الحروب التي كانت تندلع نيرانها بين القبائل، يصف لنا الشاعر تلك المعارك ويفخر بقومه الغالبين، أو يعتذر عنهم إن كانوا مغلوبين، وأكثروا في هذا الموضوع أكثر من جميع فنونهم الشعرية من غزل ومديح وهجو وغير ذلك[١].

وقد شاهدنا العوام يقبلون على سماع كتب المغازي والقصص، يلتفون حول قارئها ويتأثرون بأخبارها، فطورًا يتحمسون وحينا يخشعون ومرة ينبسطون وأخرى ينقبضون، ويفهمون كل ما يسمعون ويعون كل ما يفهمون، سواء في ذلك اللبيب[٢] والغبي والشيخ والصبي.

وهذه الأمهات-على جهلهن-لا يخلو سمرهن مع الصبيان من حكايات واقعية وروايات خيالية، وترى الصبي خاشعا أمام تلك القصص التي يفهمها ساذجة وإن كان بعضها لا يخلو من مغزى لطيف وغرض صحيح.

وقد لاحظت أيام مباشرتي للتعليم بالمكتب العربي بقسنطينة أن الصبيان أحرص على التاريخ منهم على غيره، فإنهم كانوا يلازمون الهدوء في درس التاريخ، ويعتنون بما يكتبون منه أكثر من بقية الدروس[٣].

---

[١] هذا حال العرب قديما، فكانوا ينقلون تاريخهم، ويهتمون به ويتناقلون أخباره، وكان أكثر ما يكون فيه شعرهم ذكر الحروب، ومدح أقوامهم الذين غلبوا، أو الاعتذار لهم إن غُلِبوا، وهذا الأمر بقي أيضا حتى بعد مجيء الإسلام، ولكن كان في صورة لها أثرها الإيجابي، فكان الصحابة الكرام يعلمون أبناءهم، ويذكرون لهم السير، والمغازي التي كانت مع النبي ﷺ ، فلا يبلغ الغلام ولا يشب إلا وقد عرف سيرة النبي ﷺ من بعثته، وإلى نهاية العهد المكي، ثم من بعد هجرته، وكذا الغزوات التي غزاها والسرايا التي أرسلها، وما وقع في تلك الغزوات والسرايا، وهذا مما يستفاد منه بلا شك.

[٢] اللبيب مرتبة من مراتب التمكّن من مدارك العقل، يقال: اللبيب، والأديب، ثم الأريب.

[٣] هذا مما يدل على أن النفوس تميل إلى معرفة هذه المسائل والوقائع التاريخية.

كل ذلك يرشد من كان له فكر وحذق[1] إلى أن علم التاريخ أعلق بالنفوس[2] من كل علق[3]، ومجلسه أخف على الأرواح من مجلس السماع والراح[4].

---

[1] الحذق هو دقة النظر.

[2] يعني ملاصق لها.

[3] كل شيء يتعلق بصاحبه.

[4] هذا من السجع الذي استعمله المؤلف، **(أخف على الأرواح)** الأنفس **(من مجلس السماع)** الإنشاد والقينة أي الغناء **(والراح)** الراح يطلق على الخمر، يعني مجلس التاريخ وسماع ما فيه أروح وأخف على النفوس من هذه المجالس الأخرى التي يستمع فيها إلى أصوات الغناء، ويشرب فيها الخمر عياذا بالله، الراح هو الخمر، ويطلق الراح على جمع الراحة التي هي الكف، لكن المقصود الأول.

[التاريخ والنقل[١]]

أكثر المؤرخين من المتقدمين يكتبون كل ما يسمعون، وينقلون كل ما يجدون من غير تصحيح للرواية، ولا تمحيص بالفكر والدراية، يُعنون بالحكايات الغريبة والروايات المدهشة، كأنهم يرون التاريخ مجموع عجائب تحير الأفكار لا ديوان حقائق تهدي المتأخر سبل الاعتبار[٢].

وقد ذكر ابن خلدون[٣] في مقدمته أمثلة من خرافاتهم وأضرابا[٤] من أغلاطهم، وأنحى[٥] عليها بالتزييف معتمدا على العقل وطبيعة العمران[٦].

---

[١] يعني كيف ينقل التاريخ؟

[٢] يذكر هنا منهج من كتب في التاريخ، يذكر منهج من سبق ومنهج من لحق، وأن ممن كتب في التاريخ يجمع كلّ شيء، فكل ما يذكر ويحكي ويقص ولو كان من عالم الخيال والحكايات يسرده ويذكره، والأصل في التاريخ أن يكون جامعا بين النقل والنقد والنظر والاعتبار، لابد من ذلك.

[٣] عبد الرحمن بن خلدون من علماء الأمة صاحب كتاب "مقدمة ابن خلدون" وصاحب كتاب "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" له هذا الكتاب ذكر في مقدمته ما يتعلق بعلم التاريخ وغيره من العلوم، ثم في المجلدات الأخرى جمع التاريخ من بدء الخليقة وهو كتاب مهم.

[٤] جمع ضرب هو النوع. يجمع على أضرب -أفعُل- جمع قلة، وأضراب.

[٥] أنحى عليها يعني حكم عليها ووصفها وأشار إليها.

[٦] هذا ماكان يعتمده ابن خلدون في كتابه "**التاريخ**" يعني ابن خلدون رحمه الله كان له منهج في نقد التاريخ، ورتّبه على مجموعة من النقاط، وقد لا يوافق على بعضها، فكان إذا نقل واقعا من وقائع التاريخ أو حدثا معينا فإنه ينقده بناء على أسس منها أنه يرجع الأخبار والآثار إلى طبائع العمران وأحواله، يعني هذا الخبر يقيسه بحسب العمران وأحوال الناس في الزمن الذي نقل منه، فإن كان غير موافق ردّه، وكذلك يحكم عادات الناس في ذاك الزمان، وقواعد السياسة في ذاك الزمان، وأحوال الاجتماع للإنسان في الزمان الذي نقل منه هذه الواقعة التاريخية، وكان يقيس الغائب على الشاهد، يعني ما يجده بين الناس في منطقة ما، إذا حُكي عنهم في زمن غبر ومضى شيء ينظر إلى حالهم في الحاضر، هل يمكن أن يكون لهم مثل هذا في السابق، وهذه انتقدوه عليها إذ لا يقاس الغائب على الشاهد، والحاضر بالذاهب، مع قاعدة أخرى وهي تحكيم النظر، وإخضاع الوقائع التاريخية للعقل، فما كان ممكنا أثبته، وما كان مستحيلا ردّه. =

ويمنعني من إثبات شيء منها هاهنا شهرة الكتاب وكثرة تداوله بين الناس[1].

وترى المؤرخين اليوم من كتاب الفرنج يستنقصون المؤرخين الإسلاميين بالتساهل في النقل، وينفِّرون القارئ من كتبهم لكون أصحابها حشوها بما يخالف الواقع وأغرقوا في المبالغة عند وصفهم لبعض الوقائع، وأنهم وقعت لهم أوهام تنبو عنها عقول العوام، وأنهم اقتصروا على سرد الحوادث من غير تعليل ولا استنتاج وبذلك أهملوا روح التاريخ وسره[2].

= كذلك من القواعد التي اعتمدها ارتكازه على نقد المتون دون النظر إلى الإسناد، وهذا انتقد فيه، وهو يرى أن النقل السندي خاص بالخبر الشرعي أي بالأحاديث، وأما النقد المتني فهذا شأنه في أخبار البشر، وهذا غير صحيح، لأن الذي عليه علماء الحديث، ومنهجهم، هو النقد السندي والمتني، كما يقال الآن: النقد الداخلي والخارجي، وأخطأ في حق علماء الحديث من ظنهم أن الغاية عندهم في التصحيح والتضعيف، وقبول الأحاديث والأخبار هو النظر إلى الإسناد فقط، هذا غير صحيح، بل النظر إلى الإسناد، وكذلك النظر إلى المتن، فعلماء الحديث يزنون الأخبار الآثار الأحاديث بهذين الميزانين، فلهم ضوابط تتعلق بالإسناد، ولهم ضوابط تتعلق بالحديث كذلك، وكم من حديث مع سلامة إسناده يردّ لوقوع شيء في متنه يدل على أنه غير محفوظ.

ومن الحملات الشرسة من أعداء الإسلام في هذا الزمن دعواهم أن المحدثين يقتصرون في الكلام على نقد الحديث على جهة الإسناد ولا يلتفتون إلى المتن، وهذا غير صحيح وكتب الأحاديث تدل على ذلك، وكتب الأحاديث العملية التطبيقية في الحكم على الأحاديث وبيان المقبول منها والمردود يدل على خلاف ما يزعمه هؤلاء.

فهنا أشار المؤلف إلى أن ابن خلدون اعتمد في رده للأخبار على العقل وطبيعة العمران، والقواعد الأخرى التي أشرت إليها.

[1] يعني الأشياء التي نقلها ابن خلدون لا يحتاج أن يذكرها لأن الكتاب موجود فمن أراد أن يرجع يرجع.

[2] يعني هؤلاء المؤرخون المعاصرون أو الفرنج يعيبون على مؤرّخينا المسلمين، وأنهم ينقلون دون تمحيص، وهذا في الحقيقة ضيق في النظر وعدم إنصاف، فمن المؤرخين من ينقلون كلّ ما يروى من غير تمحيص ولا تدقيق وقد أبان أهل العلم بعض تلك الكتب، ولكن من علماء المسلمين من ينقل التاريخ ويمحص ويسهل ويذكر أسانيد الأخبار ويعتبر ويمحص هذه الأخبار ويزنها، ويذكر ما يقبل منها وما يُرد، ويذكر العبر من وراء هذه الأخبار، وعلماء التاريخ من المسلمين قد ذكروا فوائد وفضائل التاريخ وما يستفاد منه فكيف يهملون ذلك؟

ولست أرى رأيهم في ذلك كله، بل أسلّم لهم في بعض ما وصفوا به مؤرخينا من غير تعميم، فإن ابن خلدون مؤرخ من مؤرخينا، وهو الذي علّم هؤلاء نقد كتب التاريخ بما أبداه في مقدمته[1]، ومن غير أن أمنع من تناولها فإنها لا تخلو من علم يجهله المتأخر[2].

والمفكر من ينظر الكتاب فيميز بين خبيثه وطيبه ولا يمنع رديئه من تناول جيده.

وهذا ابن خلدون أول من نقد مؤرخي الإسلام لا شك أنه استفاد فوائد جمة من نفس الكتب التي انتقدها أو انتقد أصحابها[3].

وأما إهمالهم لتعليل الحوادث والاستنتاج منها فليس مما يقدح في منزلتهم أو ينقص من مزيتهم، بل إن القارئ يجد في كتبهم المادة بصورتها، وتبقى له الحرية في التعليل والاستنتاج، فإذا فكّر وحكم في قضية تاريخية لم يبعد عن الحقيقة، وقد رأينا في بعض الجرائد الفرنسية إنكارا عنيفا على الجرائد الإنكليزية لنقلها أخبار بعض الجهات الشرقية وتصرفها فيها بالشرح والتعليق حتى تنطمس الحقيقة على القراء ويضلون السبيل في فهم تلك الأخبار، وقالت تلك الصحيفة: إننا لا نريد إلا الحوادث التي ينقلها الصحفي مجردة حتى يمكننا أن نعمل رأينا فيها[4].

---

[1] وما ذكره في المقدمة من قواعد في النقد.

[2] يعني فيما تضمنته مقدمة ابن خلدون.

[3] فإذن هذا الحكم العام الشامل على المؤرخين المسلمين هذا حكم فيه جور، فقد يكون في كتب التاريخ نقد لأخبار لم تمحّص، ولكن لهم في ذلك العذر، إما بنقل أساليبها، وإما بالحكم عليها أحيانا، ويذكرون ما يعتبر منها، أما أنها كتب خالية من الاستفادة والعبر، فهذا غير صحيح، ومنهم من أغرق في النقل من غير تمييز وتمحيص.

[4] يذكر هنا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن عذر من نقل الأخبار من المؤرخين المسلمين من غير استنتاج ولا اعتبار منها، أو ذكر الاستنتاج منها، القصد أن يذكر لك الواقعة التاريخية كما هي، ولا يشوش على فكرك بإدخال روح عقله، فأنت تقرأ الواقعة التاريخية وتستفيد منها بمحض فكرك وفهمك، قال ولهذه مثال واقع، ذكر أن جرائد فرنسية انقدت جرائد إنكليزية في نقلها لأخبار، وتعليقها على أخبار، فقالت: لا نريد تعليقكم، نريد الحدث كما هو، حتى يعمل كلٌّ فيه رأيه.

تأمل أيها المنصف تجد ما عابه الغربيون على المؤرخين الإسلاميين قد صاروا يرغبون فيه ويدعون إليه في الحوادث الحاضرة[1]، إن الطريقة التي يفتخرون بها على مؤرخينا صاروا يتذمرون منها ويعلنون بمصادمتها للواقع ومضادتها للحقيقة، وهم -وإن أبدوا ذلك في خصوص الحوادث الحالية- لا يستطيعون أن يفرقوا بينها وبين الحوادث الماضية[2].

إن ذاك القديم كان جديدا * وسيغدو هذا الجديد قديما**

وعندي أن أحسن طريق يسلكها المؤرخ أن يضع بين يدي القارئ الحادثة التاريخية كما هي ثم يرشده إلى كيفية الاستنتاج منها وبذلك يكون المؤرخ نزيها في نقله، والقارئ في مأمن من عثرة ذلك المؤرخ

---

[1] هؤلاء المؤرخون الغربيون الفرنج يطعنون على المؤرخين الإسلاميين أنهم ينقلون وقائع وحوادث تاريخية، ولا يعلّقون عليها، لكن إذا جاء الأمر إلى حقهم انقد هؤلاء الفرنسيون على الإنكليز كونهم ينقلون الأخبار مع ذكر التوجيه لها، قالوا: لا نريد التوجيه، أعطونا الأخبار ونحن نعمل الرأي، فما انتقدوه على المؤرخين المسلمين وقعوا فيه في حقهم وجانبهم، وقالوا: إن الطريقة التي يفتخرون بها على مؤرخينا صاروا يتذمرون منها، ويعلنون بمصادمتها للواقع، ومضادتها للحقيقة، وهذا حال الفرنج والغربيين، وحال الكفار، فينتقدون علينا ما يجيزونه لأنفسهم، أو يرون في المسلمين أشياء يرونها عيبا ثم في حقهم لا يرونها عيبا، ولا يرونها مذمة، فيستعملون ميزانين، ميزان يخصهم وميزان يخصنا.

من الأمثلة ما ذكروه قبل سنة أو سنتين مسؤولة فرنسية مرموقة في البلد الفرنسي، كان لها موعد في صبيحة يوم من الأيام في المحكمة لتثبت الولد الذي في بطنها يرجع لمن؟ والأمر متردد بين ثمانية رجال تسافحهم، فلمن ستنسبه؟ هذا حال من هو صاحب منصب في الدولة الفرنسية، ثم يتكلم بعض الوزراء الفرنسيين ويقول: أنا متخوف على المرأة السعودية أن تظلم ...الخ، فالميزان الذي عندهم ميزان، والميزان الذي يطبقونه على المسلمين ميزان آخر، وقل مثل ذلك في التعليم، ما يلزموننا به ونحن نتبع ما جاء من الغرب، لكن المطبق عندهم وعليهم غير المطبق علينا وعندنا، فإذن شأن الميزانين عند هؤلاء دائما.

[2] يعني لمّا قالوا: المؤرخون المسلمون ينقلون الوقائع السابقة من غير تعليق، لكن لما جاء الأمر في حقهم قالوا لبعضهم: انقلوا هذه لوقائع من غير تعليق، فرأوا هذا غير مذموم والآخر مذموم، فإن قلتَ إن هذه وقائع حاضرة والأخرى قديمة، قال المؤلف ما يوجد فرق، وذكر في ذلك بيتا:

إن ذاك القديم كان جديدا *** وسيغدو هذا الجديد قديما

لأنه إذا غلط في نظره استطاع القارئ أن يدرك غلطه (فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[1] وكثير من الناس لا يحسن الابتكار ولكن لا يفوته التمييز بين السليم والسقيم من الأفكار[2].

---

[1] هذا حديث النبي ﷺ، مبارك الميلي رحمه الله يقول الأفضل أن تنقل الحادثة التاريخية كما هي، إن فعل شيئا فإنما هو يبين للقارئ كيف يستفيد منها ويستنتج العبر منها، فعند ذلك يكون المؤرخ أمينا في النقل، وما ذكره من استنتاج أو طريقته إذا أخطا فالقارئ يتبين خطأه.

[2] وإن كان يعني ليس له مُكنة في أن يبتكر وأن يخترع وأن يتكلم وأن يجمع، وأن يركّب، ولكن إذا قرأ فإنه له من العقل ما يميز به، لهذا ناسب أن يتكلم على العقل.

[التاريخ والعقـــل]

العقل عقلان: فطري[1] وكسبي. الفطري هو نور إلهي يهبه الخالق للبشر على تفاوت سبق به القدر[2]، لا دخل للإنسان في ضآله شعاعه أو سطوع ضيائه[3]، والكسبي[4] يزيد وينقص ويقوى ويضعف على قدر ما يعد له صاحبه من المواد[5].

هذه المواد التي يكون العقل الكسبي على نسبتها قسمان[6]: مواد حاضرة وأخرى غابرة. الحاضرة هي تجارب الإنسان اليومية التي يحصل عليها بالعشرة والضرب في الأرض والمعاملة[7]، والغابرة هي ما

---

[1] الفطري هو ما أودعه الله في جميع الناس، وفي جميع النفوس، والعقل يطلق -كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- على أربعة معان:

أ= يطلق العقل ويراد به ما غرزه الله في نفوس الناس، وفطرهم عليه من التمييز، فهذا يطلق عليه العقل.

ب= ويطلق العقل أيضا على ما في الإنسان من تصرفات على وفق عرف الناس وعاداتهم وما تتقبله النفوس، فيميَّز ويقال: هذا عاقل، وهذا مجنون، هذا الأمر الثاني.

ج= ويطلق العقل على الفهم (لقوم يعقلون) يفهمون.

د= ويطلق العقل على الأخلاق الحسنة.

هذه أربعة معان -أظن- ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فالعقل منه فطري وهو المركوز في كل النفوس، ومنه كسبي.

[2] وهو النوع الأول الذي ذكرتُ.

[3] يعني شيء أودعه الله في النفوس، يتفاوتون بالجعل الإلهي والخلق، الله ﷻ خلق النفوس على ذلك.

[4] الذي يكتسبه الإنسان.

[5] هذا العقل الكسبي هذا يزيد وينقص، ويقوى ويضعف بحسب ما تغذيه به من مادته، ولهذا من عُني بصقل عقله، وتقويته، والزيادة فيه فإنه يكتسب من ذلك زيادة، وأما من أشرب نفسه، أو اتبع أسبابا تنقص العقل، وتضعفه، فلا شك ولا ريب أنه سيكون على تلك الحال.

[6] من المواد التي تزيد العقل وتقويه هذه قسمان.

[7] هذا مما يزيد في العقل، من خلال المعاشرة، من خلال الضرب في الأرض السفر، ومن خلال التعامل مع الناس.

يطالعه من أحوال الأمم الماضية ونظم حياتها ووسائل استقلالها وعلل انحطاطها وما تركت لنا من حضارة واختراع وعلوم وفنون[1].

وقد حث القرآن على الاحتفاظ بالعقل والسعي في توسعته فدعا المؤمنين به إلى السير في الأرض بقوله:{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ..}[2] الحج، وإلى البحث عن أحوال الماضين ومصير المتقدمين بقوله:{ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..}[3]التوبة، وقص عليهم

---

[1] هذه مادة غابرة ماضية مما تزيد في العقل وتقويه. وكأن به يرد على صاحب مقالة في هذه الأيام يزعم فيها أن عقل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد مات، ومات معه عقله فلا حاجة إلى أن نستفيد منه، وتعجّب من استفادة الناس من عقل ميت، وهذا كلام الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأن فيه شيء من الرد على هذه المقالة، قال من المواد التي تنمي العقل مادة غابرة هي أحوال الأمم الماضية، وكيف كانت حياتهم ووسائل استقلالهم، وعلل انحطاطهم، لماذا انحطت حضاراتهم، وما تركوا لنا من حضارة واختراع وفنون، ومن ذلك كيف كان تفكيرهم وكيف كان انتهاجهم، وكيف كان تفكير عقولهم.
وإذا جئنا إلى الإمام الشافعي فهو صاحب عقل فذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكيف لا يستفاد ولا يبنى على فكره وعقله رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

[2] ذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ في هذه السورة بعد أن ذكر {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}الحج٤٢-٤٦، فهذا فيه إشارة إلى ذلك، وإلى استعمال العقل، والنظر في أخبار السابقين أي في تاريخهم، وفي وقائعهم فإن ذلك مما يفيد الأمة.

[3] {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}التوبة٧٠، فهذا فيه النظر إلى أخبار هؤلاء، فيستفاد من نظر الماضين لاستثمار ذلك في مصير القادمين والمستقبل، ينظر كيف يستفاد ممن سبق.
فائدة: في تصويب الكتاب يقول علماء الحديث في باب كتابة الحديث، في باب ما يقع في كتب الحديث من التصحيف، هل يصح تصحيح الكتاب أو لا؟ لهم في ذلك تفصيل، ومن ذلك ما يتعلق بالآيات، فإذا كان في مخطوط ما أو كتاب ما ذكر آية، وفيها الخطأ فهل يصوّب الخطأ لأن الآية ليست كذلك؟ ومراد المؤلف ذكر الآية قال الله تعالى وذكرَ آية، لكن فيها خطأ، هل الخطأ من المؤلف يعني خانه حفظه، أو الناسخ أخطأ -الله أعلم- هل تصوَّب الآية أو تترك كما هي ويصوّب؟ كانوا قديما يصوبون على الهامش، على الحاشية يمينا أو شمالا أو تحت، فالآية يقال: إذا كان فيها قراءة فتترك كما هي، لأن المؤلف لعله تبع ذلك ومشى على قراءة معينة، كما هو موجود في تفسير الجلالين، تفسير=

قصصا كثيرة ليتدبروها وليتعظوا بها ونبههم إلى هذه الغاية بقوله:{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ..}يوسف[1].

=الجلالين مخطوطه مكتوب على غير قراءة حفص عن عاصم، لكن الخطأ الموجود في المطبعات، وأظن في كل طبعات تفسير الجلالين الخطأ وارد، وهو أنهم أثبتوا المصحف على رواية حفص، فإذا جئت لتقرأ وجدت أن صاحب التفسير الجلالين كل من جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، يذكر الآية ثم يقول (وقُرئ بكذا) يعني يذكر القراءة الموجودة في المصحف الذي أثبتوه، فدل على أن المصحف الذي اعتمد عليه والقراءة التي اعتمد عليها ليست هي قراءة حفص، والذي يغضب على الظن أنها قراءة الدوري عن أبي عمرو البصري، فإذن هذا خطأ، فإذا كانت القراءة على قراءة معينة تُترك كما هي لا تُبدل، أما إذا كان خطأ في الآية فإنه يصوّب إذا كان خطأ.

هنا {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ} لا توجد قراءة (وآذان) بخلاف الآية الأخرى في سورة غافر {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}غافر٢٦، في قراءة (وأن يظهر) بدل (أو) (و)، فلتصوبوا.

[1] فبعد أن ذكر هذه القصة {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} ثم قال في آخر السورة آخر آية {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}يوسف١١١.

إذن القصص الماضية فيها عبر، فهذا الاعتبار مما يغذي العقل.

لست أريد أن أستوعب الشواهد القرآنية على تكوين العقل الكسبي وترقيته[1]، وإنما قصدت تنبيه القارئ إلى أن للتاريخ مدخلا كبيرا في ذلك[2]، وكيف لا-وبه تعرف سنة الكون وطبيعة العمران، ومنه تُتلقى سيرة الأنبياء والأولياء وأعمال الأبطال وتدابير السياسيين[3].

وإنما يكون للتاريخ هذا الأثر في ترقية عقول البشر مادام على نقل الأثبات معتمدا، وعن تدليس المغرضين مبتعدا خاليا من خرافات أكثر المتقدمين وكمايات المتعصبين من المتأخرين[4].

---

[1] يعني في الآيات القرآنية ما يكون العقل الكسبي للإنسان، فالعقل عقلان: فطري وكسبي، فمما يقوي العقل الكسبي كثير من آيات القرآن بل كل القرآن، لمن تمعنه ولمن تدبره، ولمن تفكر فيه، ولمن أمعن النظر فيه، وكل بحسب ما أوتي من العلم، فمن أوتي من العلم الشيء العظيم فإن نظره في كتاب الله ﷻ مما يقوي عقله وفهمه وعلمه، ومن كان دونا فدون، بحسب ما عنده من العلم.

مما ذكره الشيخ الإمام ابن جزي الكلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره "التسهيل في علوم التنزيل" هذا كتاب مختصر في التفسير وينصح بقراءته وإن كان يقدّم عليه الجلالين، ولا بد لمن يقرأ الكتاب أن يكون على دراية بشيء من علوم الآلة كالنحو والصرف والبلاغة ونحو ذلك- فيقول في قوله تعالى {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}البقرة٢، وذكر أوجه الإعراب، قال هنا قال (لا ريب فيه) ولم يقل (فيه لا ريب) لم يقدم (فيه) على (لا ريب) لكن في مواضع أخرى جاء النفي وتقدم عليه (فيه)، في غير هذا الأمر، فقال ﷻ في خمر الجنة {لَا فِيهَا غَوْلٌ}الصافات٤٧ لم يقل (لا غول فيها) ما وجه ذلك؟ يعني هنا في إعمال الفكر والعلم والتدبر، قال (لا ريب فيه) تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والقصر، ولو قال (فيه لا ريب) يعني يوجد كتاب آخر فيه ريب، وهو لا يحتاج أن يحصر وأن يقصر أن الريب لا يوجد إلا في هذا الكتاب وفي غيره قد يوجد، لم يقصد هذا، وإنما المقصود (ذلك الكتاب) الذي هو القرآن على أصح الأقوال وقيل اللوح المحفوظ وقيل غيره (لا ريب فيه) لا يوجد فيه شك، وأما قوله {لَا فِيهَا غَوْلٌ} يعني غيرها فيها غول لأنه قدم ما حقه التأخير، فحصر عدم الغول في خمر الجنة، أما غيه ففيه غول.

إذن آيات القرآن الكريم التدبر والتمعن فيها مما يكون العقل الكسبي، إذن فالاهتمام بالقرآن الكريم فيه ما يمدّ عقولنا، لكن الإمعان فيه بالطريق الشرعي، الطريقة المشروعة ليس بأن يفكر دون انضباط، ودون ضوابط شرعية.

[2] أي في تكوين العقل الكسبي.

[3] يعني يعرف من التاريخ فلا شك أن له مشاركة في تكوين العقل الكسبي.

[4] يقول الاستفادة من التاريخ يكون لها أثر في العقول إذا كان ينقل هذا التاريخ نقل الأثبات، يعني أن يتثبت في نقله، ويبتعد عن تدليس المغرضين من يحرف التاريخ ويغير فيه ويزيد وينقص، وعن تزييف المتعصبين.

قد أريناك-آنفا-ما للمتقدمين وما عليهم في نقلهم، والآن نريك ما للمتأخرين وما عليهم في عقلهم[1]:

المؤرخون اليوم توسعوا في مباحثهم ونوعوها إلى أنواع خلت منها أسفار القدماء واستعانوا على أبحاثهم بالبناءات الأثرية والكتابات الحجرية، ولكن أكثرهم يحجب عن القارئ المادة التاريخية ويناوله أبحاثه واستنتاجه حتى يحمله على رأيه في ذلك الموضوع، وهو تغرير بالقارئ وتضليل للفكر.

فما الحامل لهم على سلوك مسلك يفضي إلى هذه النتيجة؟ يمكنني أن أحصر الأسباب الداعية إلى ذلك-ولا أدعي الإحاطة-في ثلاثة أسباب[2]:

١=التعصب الجنسي والوطني: ينظر المؤرخ إلى جنسه بعين الإعجاب وإلى وطنه بعين الرضى فيجهد فكره في تأويل المساوئ واختلاق المحاسن ويخون التاريخ بكتمان ما لم يستطع تأويله من النقائص، ولا يقنع بهذه الخدمة لجنسه ووطنه حتى يعدو على غير أمته وسوى وطنه ينقصهما وينسب لهما الهمجية ورداءة الطبع ويسطو على محاسنها فيكتمها أو يشوهها بأفكاره، كل ذلك ليظهر فضل أمته ووطنه على من سواهما-عموما أو خصوصا-من الأمم والأوطان[3].

---

[1] الكلام على السابقين في نقلهم والمتقدمين الآن المعاصرين وما في عقلهم، من قدح يقصد.

[2] يعني أن هؤلاء المؤرخين اليوم توسعوا في نقل الأمور التاريخية ذكر البناءات، والنقوش على الحجارة وغير ذلك مما لا كبير فائدة فيه، ما الحامل على ذلك؟ ذكر ثلاثة أسباب.

[3] من أسباب تزييف التاريخ هذا السبب، التعصب الجنسي الوطني.

٢=حب التفوق واستعباد الغير: إذا حكم القضاء[١] على أمة بانتزاع أمرها من يدها واستيلاء الأجنبي عليها فإن ذلك الأجنبي يحمل تلك الأمة على الاعتراف بسيادته عليها وانخفاضها عن مرتبته كي لا تنفر من خدمته ولا تستثقل وطأته وترضى عن اضطهاده لها وتخضع لسلطانه[٢].

ولا أعون على بلوغ هذه الغاية واجتناء هذه الثمرة من التلاعب بالتاريخ وقلب حقائقه وإعطاء كل الفضائل والمزايا للحاكم وكل النقائص والدنايا للمحكوم عليه المغلوب على أمره[٣].

٣- الجهل بالمصادر الصحيحة: قد يكون المؤرخ العصري قليل التعصب، بعيدا عن المنازع السياسية، والحيل الاستعمارية، ولكنه لا دراية له بالكتب التاريخية التي توافق مشربه، ويستعين بها على تحقيق مذهبه، فيغتر بمن كتب قبله من المتعصبين والانتفاعيين، وتخفى عليه مقاصدهم القومية والشخصية فيضل السبيل ويخطئ الحقيقة[٤].

---

[١] قوله (إذا حكم القضاء) هل يضاف الشيء إلى صفة الله أو إلى الله؟ نقول: إذا قضى الله كذا، أو إذا حكم الله بكذا، هذه عبارة سليمة، ولكن هل يقال (إذا حكم القضاء)؟ و(إذا أراد القدر)؟ أو (أرادت المشيئة) أو (قضت الحكمة) هذا لا يقال، لكن إذا أضيف إلى الله (اقتضت حكمة الله) و(شاءت قدرة الله) هذا التعبير بعض العلماء يقول: لا شيء فيه، فالعبارة هنا من المؤلف كان الأولى أن تكون إضافة ذلك إلى الله ﷻ نقول (إذا حكم الله) أو (إذا قضى الله) أو (حكم قضاء الله) أو (من حكم قضاء الله) هذه العبارات أسلم.

[٢] مثلما صنعت فرنسا.

[٣] هكذا فعلت فرنسا لما أرّخت وورّخت -كما يقال- قالت الحقيقة شمال إفريقيا هذا مكان لا اسم له ولا حضارة منقطع الأمة، فلا بد أن يبسط عليه سلطة حضارة مرموقة وبحره المتوسط يمد إلى فرنسا، فهي أولى به إلى آخر ما حكموا.

[٤] هذه أسباب ثلاثة مما جعلت الكثير فيمن يكتب في التاريخ يغير فيه وينحى منحى غير المنحى الصحيح للمؤرخ، ما الحامل؟ التعصب الجنسي والوطني، حب التفوق واستبداد الغير، والجهل بالمصادر الصحيحة، فإذن من يكتب في التاريخ وينقل الحقائق للناس، فلينقلها من غير تعصب لا له ولا عليه، ومن غير أن تختلجه هذه الصفة -التفوق واستبداده لغيره- وأن ينقله من مصادر صحيحة.

ولقد أعان هؤلاء على خطتهم المنحرفة عظمة أممهم في الحال، فاشتقوا من تلك العظمة كذبهم لماضيها، وسهل عليهم العبث بتاريخ الأمم الضعيفة أو المغلوب على أمرها انكداك صرح مجدها الغابر، ودروس[1] معامله، وانطماس آثاره، فلم يبق لها من شرف يُذكر، ولا من عظمة ومفخر، حتى إذا انبرى غيور منصف لكشف الحجب عن عظمة قومه ورفع الستار عن محاسن أسلافه، كان الريب أسبق إلى كلامه من اليقين، والتكذيب أقرب من التصديق، والعناد أيسر من التسليم، وهكذا تكون عظمة الأمة الحالية معينة على اختلاق المحاسن لها في القرون الخالية[2].

وضعف الشعوب في الحال يثير حول صدق شرفها الماضي الريب والجدال[3] من القواعد المقررة لدى الأمم الغربية أن الغاية تبرر الوسيلة فهم لا يرون من العار أن يتوسلوا لخدمة شعوبهم وحكوماتهم بتضليل الأفكار ومصادرة الواقع، ولا يبالون بخدمة الحقيقة التي يجب أن تكون الضالة المنشودة للمؤرخ والباعث الوحيد للباحث[4].

---

[1] أي انمحاء.

[2] هذه خطة هؤلاء المغيرين المزيفين للتاريخ، فلتسلط أممهم ودولهم يأخذون من هذه السلطة كذبا، فيكذبون على تاريخ الأمم الأخرى، وبسلطتهم وتمكنهم يمحون ويدكّون ويطمسون ويزيلون مجد أمم أعرق منها في المجد والمفخرة، والحضارة والثقافة وغير ذلك، وإذا جاء في هذه الأمة المحتقرة من يدافع عنها نابذوه بالتكذيب، فإذا قال شيئا ارتابوا وما تيقنوا، وكذبوا ولم يصدقوا، وعاندوا ولم يسلموا.

[3] يعني كون الأمة ضعيفة إذا جاءت تبين شرفها وعلوّها في الماضي لكونها ضعيفة تقصر عن ذلك.

[4] خدمة الحقيقة لا يلتفتون إليها، المهم أن يصلوا إلى أغراضهم ولو بأقبح وسيلة، يصلون إلى الإطاحة بالإسلام، ولو بأبشع وسيلة، فكل من يدعو إلى حقائق الإسلام وتظهر له ثمار في دعوته للناس، فالعبارة سهلة! يركّب لك وصف "إرهابي" وانتهى الأمر، ولو لم يكن كذلك، ولو كان أبعد الناس مما يثار حوله، وفيه وبه، وعندهم ليس القصد بيان الحقيقة التي هي أصل ما يسعى إليه المؤرخ، لا! سوؤهم وانحرافهم يحملهم على مثل هذا، فيفعلون أخبث الوسائل للولوغ إلى قصدهم ولو بالكذب، ولو بالتزوير، ولو بالتزييف، ولو بالعناد ...الخ وقد قيل قديما:

قتل امرء في غابة * جريمة لا تغتفر**

وقتل شعب كامل * مسألة فيها نظر**

=

ولست أقصد فيما أبديت من الانتقاد أن جميع التواريخ العصرية لا تخلو من هذا العيب إذ من المحال إجماع الأمم على الضلال ولكن الجهل لا ينجو من ذلك السل.

وخلاصة الكلام في هذا الموضوع الهام أن عمدة التاريخ النقل والأثر وجماله وحليته الفكر والنظر بهذا تنجلي الحقائق وتتضح للباحث الطرائق[1].

= كم قتل الفرنسيون من الجزائريين؟ قد يقولون: هذا تاريخ قديم، طيب وكم قتلوا في سوريا! كم قتلوا في العراق! كم أحرقوا في الشيشان؟ كم أحرقوا في بورما؟ كم قتلوا في روسيا؟ كم يقتل المسلمون في الصين؟ كم خسفوا بأناس في شتى البلاد؟ مسألة فيها نظر! قتل رجل واحد في غابة أقاموا الدنيا ولم يقعدوها جريمة لا تغتفر، هل يريدون الحق؟ عندهم غاية والغاية تبرر الوسيلة، فأي وسيلة؟ يزنون بميزانين، فإذا قتل يهودي أقيمت الدنيا ولم تقعد، واهتز أمن العالم، لكن يقتلون من المسلمين الآلاف والملايين -والله المستعان- رخص دم المسلم إلى هذا الحد.

نتم قراءة الصفحتين حتى نشرع في درس لاحق إن شاء الله في الكتاب.

[1] هذه خلاصة جميلة من المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

[مبادئ التاريخ[1]]

توقيت الأخبار وتقدير أمدها بحوادث يعلم المخاطب زمن حدوثه أمر قديم في البشر عام في جميع الأناسي.

تجلس إلى البدوي والحضري العالم والجاهل، يحدثك عن ميلاده أو سفره إلى بلد أو ولايته موظفا أو الولاية عليه إلى غير ذلك من ضروب الأخبار فتراه يؤرخ لك أخباره ويؤقتها بعام الحادثة الفلانية.

وهذه الحوادث التي هي مصادر التاريخ ومبادئه منها ما هو خاص بقبيلة أو جيل لا يؤرخ به سواهم ومنها ما هو عام يؤرخ به قبائل كثيرة في أجيال عديدة وذلك تابع لقيمة الحادثة في الرواج والانتشار والاشتهار.

ومن الحوادث المشهورة التي اتخذها المؤرخون مبادئ لتوقيت أخبارهم مبدأ الخليقة والطوفان وبناء رومة وملك الإسكندر[2] وميلاد عيسى عليه السلام وهجرة محمد ﷺ وإلى المدينة.

---

[1] المبادئ جمع مبدأ والمقصود من أين يبدأ التأريخ، والحقيقة أن علماء التاريخ، أو من كتبوا فيه ذكروا أمورا كثيرة، فذكر أبو خيثمة في تاريخه، وكذلك ابن جرير الطبري وغيره أنه لما أهبط الله ﷻ آدم ﷺ انتشر ولده بعد ذلك فأرخوا من مهبطه، ثم لما بعث نوح أرخوا من مبعثه، ولما وقع الغرق والطوفان أرخوا من الغرق والطوفان، ولما بعث إبراهيم ثم كانت قصة نار إبراهيم ﷺ أرخ من تلك النار، ثم بنو إبراهيم من بني إسحاق أرخوا من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف، ومن مبعث يوسف إلى مبعث موسى، ثم من مبعث موسى إلى مبعث سليمان وداود، ثم إلى مبعث عيسى، ثم إلى مبعث محمد ﷺ، وقيل أرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم إلى بنيان البيت، ثم لما تفرقوا بعد ذلك صارت كلّ قبيلة تؤرخ بحسب حوادثها.
وذكر ابن جرير الطبري أن الذي أرخ عليه أهل الإسلام هو التاريخ الهجري ولم يؤرخوا غير ذلك، وكانت قريش قبل ذلك تؤرخ بعام الفيل، وسائر العرب تؤرخ بأيامها.

[2] قيل هو الأكبر ذو القرنين، وقيل هو الذي سمي في القرآن وقيل غيره.

وقد اعتنى أبو الفداء[1] صحاب حماة في تاريخه[2] بالمقابلة بين التواريخ، ورسم لها جدولا ولكن أكثرها غير مضبوط ضبطا يوثق به، بل منها ما تحقق عدم ضبطه واستوقن بالغلط في تقدير مدته وأضبطُ التواريخ وأشهرها تاريخ الميلاد وتاريخ الهجرة.

إسناد التاريخ إلى حادثة من الحوادث تذكير بتلك الحادثة ليتعظ بها المتعظون، ويعتبر بها المعتبرون فتترك أثرا في النفس، ولنبين ذلك في التاريخين الميلادي والهجري.

إسناد التاريخ إلى الميلاد تذكير بما فيه من خرق العادة، وولادة إنسان من غير أب ويتبع ذلك ما ظهر على يد هذا المولود -عيسى عليه السلام- من الخوارق كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، والأثر الذي يبقى في النفس من هذا التذكير هو كمال الإيمان بالله وأنه عظيم السلطان كامل القدرة لا يعجزه خرق نظام هو الذي اخترعه وأوجده، وهذا إنما يحسن في مقام الوعظ والإرشاد وترقيق القلوب ولا يحسن في كل مقام لأن تكرير هذا الأمر على الآذان يحدث أثرا سيئا في الأذهان، فإنه يقف بالنفس موقف الحيرة والدهش ويحبس العقل عن التفكير والتوليد مادام متأثرا بهذا الحادث العديم النظير.

وإسناد التاريخ إلى الهجرة تذكير بما فيها من الأحوال وما تقدمها من الأهوال ما يتبعها من الأعمال، تذكر بالأسباب التي حملت هذا الرجل العظيم ﷺ على مفارقة مستوطن آبائه وأسلافه، وما لقيه قبل الهجرة من ضروب الأذى وما قاساه من صنوف المحن والشدائد، وكيف تحمل مشاق هذه الهجرة ومتاعب هذه الرحلة، وما قام به بعدها من أعمال الجهاد وكيف صبر حتى ظفر وأدى أمانة ربه وقلب وجه التاريخ فقضى على المدنيات السابقة ونشر مدنية أعلى وحضارة مثلى.

والأثر الذي يتركه في النفس هذا التذكير إنارة العقل وتوسعة دائرته وتثبيت النفس فلا تزحزحها النوائب، ولا تقف بها في طريقها الشدائد.

يقوم عظيم من العظماء في أمة يرشدها إلى طرق سعادتها، ويستحثها على العمل الصالح لحياتها فيجد أمامه عقبات وعراقيل ربما صدته عما سمت إليه نفسه، ولكنه إذا ذكر الهجرة ذكر ما لقيته خير

---

[1] يعني ابن كثير.

[2] البداية والنهاية.

الخلق ﷺ في سبيل دعوته من قومه وعشيرته ويرى ثباته وتقدمه في جهاده إلى الأمام ثم يرى نتيجة صبره، وكيف كانت العاقبة له على خصومه أعداء أنفسهم فيتسلى بذلك ويتأسى بهذا الرجل العظيم ويثبت للخطوب ولا يبالي بشغب الخصوم، ويقارع الأهوال وينازل الأيام والليالي حتى تلين قناة خصمه، ويخضع الدهر لحكمه ويذوق لذة الظفر بالمُنى وعند الصباح يحمد القوم السرى[1].

[1] كما جاء في المثل.

[ترتيب الكتاب]

سيكون مؤلفنا هذا -إن يسر الله تمامه[1]- ذا أربعة كتب:

الأول في تاريخ الجزائر قبل الاستلاء العربي، الثاني في العصر العربي، الثالث في لعصر البربري، الرابع في مصير أمر الجزائر إلى الأجانب وأحوالها في هذا الدور.

وكل كتاب من هذه الكتب سيقع في أبواب وفصول تشرح حالة الجزائر في ذلك الدور، وتزيد المعتبر استبصارا، وتقف باليأس على منابع الرجاء، وتبعث في المتكاسل روح النشاط، وتهيب بالمتواكل إلى العمل، وتحدث -إن شاء الله- في الأنانيين حب الصالح العام حتى يؤمنوا -إيمانهم بوجودهم- أن السعادة الحقة هي السعادة العامة فيحصرون مصلحة أبناء وطنهم ويستعذبون العذاب في سبيل إسعاد شعبهم.

هذه بعض أماني يهجس بها خاطري لا أحب أن أكتمها على القارئ، فإن حقق الله أمانينا فذلك ما إليه قصدنا وإياه أردنا، وإن كان مؤلفنا أقل من أن تنتج عنه تلك النتائج فما ألونا جهدا ولا ادخرنا وسعا، لا أعرف التقصير ولا أنكر القصور، وإن كان شعبنا هو البعيد عن متناول تلك النتائج الجليلة وإدراك تلك الأغراض النبيلة، فالمستقبل هو الكفيل بكشف هذا السر، وما على العامل إلا أن ينظر إلى شرف المقصد ونبل الغاية، فيجهد نفسه إذ ذاك ويغالب العوارض التي منها سخرية ضعاف الهمة ولغو الجاهلين ولغط الثرثارين، وعلى العامل أن لا يكون مستقربا لنتائج عمله قلقا من طول انتظارها أو متشككا في إصابة أسبابها فإني أرى الوسط -كالهواء- إذا عمر بشيء لا بد أن يحمله إلى العمو ويحدث أثره فيهم قريبا أو بعيدا.

ومن يصبر يجد طول التمني *** على الأيام قد صار اقتراحا[2]

---

[1] وإن يسر الله قراءته أيضا.

[2] غاية في الجمال رحمه الله رحمة واسعة، والذي رآه أو ذكره بعيدا قد حققه الله ﷻ وصار الاستقلال لهذا البلد، وهي تنعم بأمنها وأمانها وإيمانها وإسلامها، نسأل الله تعالى أن يديم علينا هذه النِّعم، والآلاء.

والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم.